

يسرون ويسرون

جمال ضاهر، فلسطين

1

عند الخامسة من كل مساء، قبل أن يستيقظ زوجها، تعود من عملها. تجلس عند نافذة تطلُّ على أرض مليئة بالقمامة وجرذان لا تتوقَّف عن الركض. تجلس تنظر إلى الأفق البعيد تسترجع يومها، تتساءل ماذا لعلَّها اليوم أغفلت، ماذا لعلَّه الشيطان أنساها.

الله الرحمن، تقول.

ساعة بأكملها تجلس، تنظر إلى الأفق البعيد تقلِّب نهارها، تعدُّ ما قال زوجها أن تفعل. تبدأ بمراجعة يومها منذ خروجها إلى عملها وحتى عودتها، تتذكَّر أنها استيقظت عندما المؤدِّن رفع صوته ينادي أن قوموا للصلاة، أن قوموا اذكروا الله، واشهدوا أن محمداً عبده ورسوله، أنه نبيُّه. وتتذكَّر أنها عندما خرجت من بيتها كانت الظلمة تمسك بالطريق تُخفي أمامها، وأنه بالرغم من الليل والعممة، كانت الطريق مليئة بفتيات صغيرات السن، ونسوة يفترشن الأرض ينتظرن خطَّ الضوء، صامتات ساكنات ينتظرن، ورجال يحثُّون السير. وتتذكَّر أنها في طريق عودتها إلى البيت، عندما مرَّت بسوق النخاسة، التقت بأبي الفاتح الحسن، صاحب دكَّان العطارة، وأنه عندما عرض عليها أن ترافقه إلى بيته وقالت له إنها تخشى الناس، همس لها أن حاجته لا تتطلَّب الكثير من الوقت.

الله الرحمن، تفكِّر.

تسدل الستائر، تحجب ضوء الشمس، وتغادر النافذة. تضع كوباً من الماء الفاتر إلى جانب سرير زوجها، وقطعة من الخبز وشيئاً من الزيت. توقظه، تجلس على كرسي قبالتها ريثما ينهي طعامه ويغادر سريره.

بعد ساعة من الزمن تأتيه بكأس من الشاي مُحلَّى بثلاث قطع من السكر الأحمر.

تزيل الغبار، تُذهب أوساخ الأرض، تغسل الملابس الرثة، ترتقها، تأتي زوجها بكوب آخر من الشاي المَحلى، تُسحِّن

الماء يستحمُّ، تدخل الحَمَّام معه، تفرك ظهره وأعضائه حتى ينقلع قشره.

عند العاشرة تدخل غرفة نومها، تخلع ثيابها وتنام.

2

عندما نبت ثدياها ورأت أمها أنها بلغتْ، أمسكت بيدها تطوف في البلدة، تجعلها ترى المعيش وكيف العَوَز. والباعة تراهم يدفعون العربات أمامهم ترى لهاثهم والتعب، والشمس تضرب، وأجسادهم ينسرب منها العرق، يَدْبِق، مالحاً لرجا يَدْبِق. والفلاحات القابعات في السواد يفترشن الأرض ويقولهنَّ، صامتات ساكنات تراهن ينتظرن المغيب. عابسات يأتين إلى البلدة عابسات يُغادرنها. ونسوة لا يجدن الخبز، شاردات يسرن يطفن بين الناس، وأطفال يمسكون بثيابهن، ظلال حفاة يمشون خلفهن، تراهم فتُدرك الحياة القَسْوَة، وكيف النفس عندما تكون حبيسة الجوع.

وجعلتها ترى الكلاب هزيلة والذباب ينهش جلدھا، وجعلتها ترى القطط لا تقوى تموء، تموت، وحمير وبغال وحمَّالين وصبية يضربون الحديد يدقونه.

اليوم بعد اليوم أمسكت بيدها تطوف في البلدة، تقول لها إنه الإنسان خُلِق ليبيلى، وإنه الله أخرج آدم من الجنة ليشقى، وإنها الحياة لها طرقها والناس، فلا تُلَاطمها، إلى أن بدأت تعمل في بيت تاجر. كهلاً في الأربعين من عمره كان، متزوج من امرأة ورثت عن أبيها كروم عنب وتمر وتين، ومثلها عن أمها. طويلة القامة كانت زوجته، حمراء الشعر، دقيقة العود، بيضاء ونمش يعلو وجنتيها، تنظر إلى نفسها في المرأة كلَّما مرَّت من أمامها تقول إنه الله لم يخلق بمثل جمالها، وإنه قد أكمل نعمته عليها بزوجها وبما ورثته عن أبيها وأمها.

جاءت إلى بيت التاجر وثلاث فتيات أخريات يبحثن عن عمل، نحيلات مثلها، حافيات مثلها، وملابسهن ممزَّقة لا تكاد تُخفي أجسادهن، وجوههن قذرة وشعورهن مُعَبَّرة مُتَلَبِّدة. وعندما رأتها زوجة التاجر ورأت أنها أكثرهن انطواء وانزواء، طلبت منها أن تخلع ثيابها ترى جسدها، ونهديها وفخذيها. فرأت أن البثور منتشرة تُغطي جلدھا، فاخترتها. قالت: "هذه كلبة جرباء، لا تُفْتَن ولا تُفْتَن".

- "تأتين مع بزوغ الفجر"، قالت لها زوجة التاجر.

وصارت الفتاة تخرج من بيتها قبل بزوغ، ساعتين تمشي في طريق ترابيٍّ تأخذه الدواب المحمَّلة بالحنطة إلى المدينة، تمشي تتلَفَّت حولها خوفاً من الظلمة، ومن الناس، وكانت الضباغ لا تَسْكُن حتى الصباح. وعندما تصل بيت التاجر، تجلس عند المدخل تنتظر، ساعة أو بعض ساعة، تنتظر ريثما تستيقظ زوجة التاجر. تدخل، تُزيل الغبار، تُذهِب الأوساخ، تغسل الثياب، تحضّر الطعام وتغادر.

وزوجة التاجر تراقبها، تنظر إليها ترى كيف تمشي، وملابسها، وإن تنظر إلى زوجها حينما تُزيل الغبار من حوله. لو أنه الله لم يخلق الشيطان، لو أنه لم يخلق الوسوسة، قالت زوجة التاجر يوماً وقد أمسكت بها الشكوك، لو أنه الله خلق الإنسان يتكاثر من دون أجساد، لو أنه خلقه من دون أعضاء.

ثرى الحياة كيف تكون؟

والطاؤوس، هل سيكون له ألوان وريش لولا غريزته، ومتعته، والإنسان هل كان سيشقى؟
له في خلقه شؤون، له في خلقه شؤون، جعل للناس رائحة يتخلصون منها بالعطر.
وبدأت تبحث عن فتاة غيرها، مُعدمة، لا تفكر سوى بالخبز.

فتيات كثيرات أتين وزوجة التاجر في حيرة من أمرها، تنظر إليهن، تتمعن في وجوههن وكيف يقفن، تخلع ثيابهن تنظر إلى أجسادهن، تتساءل إن كان زوجها سيرغب بإحداهن. هذه صغيرة السن لن تقاومه، تقول، وهذه ناضجة ممتلئة الجسد والنهدين، فكيف سيقاوم الشيطان، وهذه سمراء، والسمراوات... يُقال إنهن السمراوات يردن الرجال من حيث شئن. والبياض مُلفت للنظر، والقصر يوجي بالضعف، والنحيفات ذليلات النفس لا يُمانعن لا يمتنعن. أبقى عليها، قالت تنظر في المرأة بعد زمن طويل من الحيرة، أبقى عليها.

3

تزوَّجت الفتاة من رجل في الثمانين من عمره، أتت به زوجة التاجر عندما اشتدت ظنونها وأمسك بها الأرق، قالت: "زوّجها أجعلها، مُلكاً لرجل فلا يأخذها غيره." وجاءت به. فقير عليل يحتاج من يعيله، فيرضى بها خادمة، لا يُمانع ولا يتمنّع. وصارت تعود إلى بيتها عند المغيب، تحمل طعاماً وشراباً مما تيسّر في ذلك اليوم، فتجد زوجها يجلس إلى المائدة ينتظرها وقد أمسك به الجوع، تضع الطعام أمامه وتدخل غرفة نومها، تبدّل ثيابها وتنام كما لو أنها لم تنم دهرًا كاملاً، أمداً يمتدُّ ألف سنة، لا تتحرّك لا تتقلّب. بعد ساعة من الزمن يدخل زوجها، يجلس على كرسي ينظر إليها، يداعب جسده يستثيره، ثم يقرب منها يُحاول يعتليها، أن يأخذها من خلفها، لا ينجح، فيضع يده بين فخذيها ويغفو.

ثلاث سنوات وزوجها يدخل إلى الغرفة، يجلس ينظر إليها، ثلاث سنوات وهو يداعب جسده يستثيره، إلى أن يوماً من الأيام سألتها زوجة التاجر عنه، عن عزمه وكيف يأخذ منها حاجته. كان ذلك عندما رأت الفتاة في منامها فرحة، ترتدي ثوباً واسعاً أبيض، يُظهر فخذيها ممتلئين، سمراوين.

"هل يُستثار؟" سألتها زوجة التاجر، "هل يعطي ماء قلبه؟" أم أنه عجوز عاجز وعضوه قطعة لحم ذابلة لا حياة فيه، فلا يأتيك؟ أم أنك لا تبالين؟

وقفت مطأئنة رأسها، لا تجرؤ على الحركة لا تجرؤ على الابتعاد عن زوجة التاجر، كأنما طفلة تعاقبها أمها، تتساءل إن كان زوجها ما زال يدرك حاجاته؟

- "لا يكاد يتذكّر كيف يأكل، كيف يمضغ الطعام في فمه"، قالت بصوت خافت.

- "حاجات الرجال لا تفنى"، قالت زوجة التاجر، "وإنها من المقدسات عند العلي. الله الرحمن."

في ذلك اليوم غادرت بيت التاجر بعد دخول الليل، تمشي تتنقّل من زقاق إلى زقاق لا تهتدي إلى طريق بيتها. وعندما وصلت، كان زوجها يجلس عند المائدة ينتظرها، يلهث من شدة جوعه. وضعت الطعام أمامه وجلست إلى جانبه، وصارت تقترب بيدها منه، تجعل الأمر يبدو عفويًا، تتفحص.

في تلك الليلة نام زوجها ويدها تحيطان بها، لا يتحرّك، لا تتحرّك. في تلك الليلة نام يحلم عندما كان شابًا يافعًا، وسيماً، يعمل في الدباغة وفي صقل الجلود، وكان في وقر من العيش، وكانت له سطوة والناس من حوله والفتيات. في تلك الليلة نام نومته الأخيرة.

4

في ليلة من الليالي، استيقظت زوجة التاجر عند منتصف الليل وألم في بطنها وشعور بالغثيان، وكان العرق ينسرب من جسمها وضربات قلبها تتسارع. قامت من سريرها وجلست عند نافذة الغرفة ترتعد من شدة خوفها، تتساءل ماذا لعلّه الأمر؟

جلست عند النافذة حتى الصباح تفكّر، دون جدوى، فعادت إلى سريرها لعلها تغفو. تقلّبت في سريرها حتى الظهر، ثم قامت وجلست ثانية عند الشرفة، ثم عادت إلى سريرها، ثم عادت إلى الشرفة. في اليوم الثالث، مع بزوغ الشمس، انهار جسدها ولم تعد قادرة على الحركة، ولم تعد قادرة على النطق.

جاء التاجر بالأطباء من كلّ ناحية معروفة بالطبابة، ولا فائدة. فجاء بالسحرة، وجاء بالمشعوذين، ولا فائدة. وعندما أشارت عليه إحدى النسوة أن يذبح ثلاث نعجات وثلاثة أكباش، وأن يسقي بدمائها أشجاراً لم تُثمر بعد، ذبح ثلاثين نعجةً وثلاثين كبشاً. ولكنها زوجته لم تُشَف ولم تتعاف، وبقيت في سريرها كأنما نبتة ذابلة تموت.

- "ثلاث نعجات وثلاثة أكباش"، قالت المرأة للتاجر، "ثلاث، لا نعجة واحدة أكثر، ولا كبش واحد. ولكني الآن، وقد سالت دماء كثيرة، فلا علم لي بالغيب."

- "هل أحاول؟" سألهما التاجر.

- "لله الغيب."

- "هل يضرُّها إن فعلت؟"

- "له الغيب"، ردَّدت المرأة، وغادرت تتمتم بكلمات غير مفهومات.

أرسل التاجر أحد عمَّاله إلى البدو يشتري النعاج والأكباش، ثلاث من كلِّ منها، وأوصاه أن تكون النعاج فتيَّةً في سنتها الأولى، وتكون الأكباش قد أقرنت. وأولم التاجر وأكل الناس وشبع الفقراء، والدماء أخذها صبي عنده يبحث عن أشجار يسقيها.

في اليوم السابع قامت تجوب البيت تنظر إلى جدرانها تبتسم، كأنما وقت الربيع والأزهار تتفتح من حولها، من أجلها. أسبوعان وهي تجوب البيت تبتسم، فرحة تمثي تجوب البيت، تنظر إلى المرأة كلِّما مرَّت من أمامها، تحمد الله أنه لم يخلق بمثل جمالها، وأنه أكمل نعمته عليها بزوجها وبما ورثته عن أبيها وأمها. ثم رويداً رويداً عادت إلى طبيعتها. وكعادتها كلَّ الصباح، تجلس وزوجها تحتسي القهوة، تنظر إلى الفتاة تعمل في البيت، ترى ثيابها وإن كانت تُظهر شيئاً من جسدها.

وفي الليل تدخل غرفة نومها، تحضّر نفسها للنوم، تُجمل وجهها، ترتدي ثوباً فضفاضاً يُمكن زوجها منها إذا جاءته الرغبة، ثم تدخل سريرها وتنام.

وفي ليلة من الليالي، بعد أشهر عديدة من تلك الحادثة، استيقظت عند منتصف الليل والألم في بطنها والشعور بالغثيان، وكان العرق ينسرب من جسمها، وضربات قلبها تتسارع. فأدركت أن تلك الحالة عادت، فقامت من سريرها وجلست عند النافذة ترتعد من شدة خوفها.

"ماذا، لعلها أقدار الرحمن؟" تساءلت.

أرسل التاجر عامله يأتي بالنعاج والأكباش، فأكل الناس وشبع الفقراء، وسقيت الأشجار، ولكنها لم تعد. فأرسل عامله مرَّةً أخرى، وأخرى وأخرى، إلى أن عادت.

في المرَّة الثالثة، بعدما جاءت الحالة وعادت من غيبتها، وقد أخذ الأمر أياماً عديدة ولزم ذبح الكثير من النعاج والأكباش، أمسك بها الخوف أنها قد لا تنجو في المرَّة القادمة، وأنه إذا ما نجت، فإن الحال هذا لا بدَّ يجعل زوجها يبحث عن زوجة أخرى.

"لماذا لا ينفكُّ عني؟" تساءلت.

أيام وأيام من بعدها وهي تفكّر، تحاول أن تستبدل على حقيقة الأمر. ومع مرور الوقت تمكّن الخوف منها، وعجزت أمامه، وقلّ طعامها وقلّ كلامها، فهزلت، وشحبت، ولم تعد تنظر إلى المرأة تُعبّر عن إعجابها بنفسها، وصارت لا ترى الناس إلا قليلاً.

وزوجها لا يعرف كيف يفعل فينقذها من الأقدار، وصار لا يغادر البيت. وعندما رأى أنها فقدت عزمها، أمسك به العجز وضافت به الأرض، فجاء بأّمه ومعها أخواته يعتنين بها، ونسوة خبيرن أسباب الحياة، يُدركن معنى الضعف والوهن. إحداهن امرأة في الستين من عمرها، طويلة القامة، ممتلئة الجسد والنهدين، سمراء وشعرها أجعد بلون البلوط. تزوجت من سبعة، الواحد تلو الواحد، ثم اعتزلت الرجال ولم تبلغ الأربعين من عمرها. كانت ضجورة ملولة، وكانت تشتترط أن تكون العصمة بيدها، تمكث أو تغادر وقتما تشاء. جاءت وابنة لها، ملولة ضجورة مثلها، ولكن الضجر جعلها لا تتزوج أبداً، بل تعاشرهم حينما ترغب برفقتهم، وتناى بنفسها حينما يعلو ضجيجهم وتكثر حركتهم.

- "سيكون على زوجة التاجر أن تختار بين قَدْرَيْن"، قالت المرأة لابنتها بعد أيام، "إما الوجع والألم، وإما الهلاك والموت. أراها لا تستطيع دونه."

- "ولكنه زوجها لا ينظر خارج بيته"، قالت ابنتها.

- "هي لا تعلم، وقد غلبتها الظنون."

- "كيف السبيل لإنقاذها من سجنها؟"

- "ربما إن زهدت"، قالت المرأة لابنتها، "في الزهد خلاص وفيه شفاء. ولكنها سجين حبيسة، ولا سبيل أمامها من نفسها. تذكرين ابنة الريان، ذلك المعدم، لا أراك الله ما أصابه. تذكرين كيف أمسك بها الوسواس وصارت تنتف شعرها حتى بان جلد رأسها، وكيف أنها لم تعد تكلم أحداً سوى متممة. وعندما حاولت أمها أن تساعد، صمتت وما عادت تنطق؟"

- لم يكن أمام ابنة الريان سوى المنية.

- "وهذه المسكينة؟" تساءلت ابنتها.

- "إما الوجع والألم، وإما مصير ابنة الريان."

- "والتاجر؟"

- "يرضى بما فيه شفاء لزوجته."

وجلست المرأة مع أم التاجر وحدّثتها عن زوجة ابنها، عن أسباب حالها وأن استمراره يعني وفاتها، وأنه عليها، هي أم زوجها، أن تسعى لخلاصها. وعندما رأت أنها لا تبالي، قالت: "إن ابنك لا يملك ثيابه، وهذه التجارة التي

ترين، ملك لزوجته، وإذا ما توفّيت، سيجوع ويعرى، وكلُّ من حوله." وعندها سألت أم التاجر عما بإمكانها أن تفعل. قالت المرأة: "لا سبيل من الظنون عندما تمسك بالنفس، وتتمكّن منها، فتصبح كما يغشي الليل النهار."

- "هل تظنُّ بزوجها؟"
- "تظنُّ أنه لا يستطيع من دونها وأخرى."
- "والسبيل؟"
- "لا سبيل والنفس حبيسة."
- "من أين نأتي بأخرى؟"
- "ما بال الفتاة التي تعمل في بيتهم؟"

5

ساكنة صار التاجر يأخذها، عارية، لا صوت يخرج منها، لا أنين ألم لا أنين متعة